إيليا

" إلهى إله العهد "

فى علم الإحصاء : الرجل الواحد يكتب واحداً مهما صغر أو كبر شأنه ، وإن رجلين مهما يختلفان طولا أو عرضاً أو سناً أو مقاماً أو قوة أو نفوذاً ، يحسبان اثنين ... !! غير أن الأمر يختلف تماماً فى قصة الحياة !! ؟ ... وقف القائد الإنجليزى نيلسون على بارجة من البوارج البحرية ، والتف حوله الجنود ، وهم يتحدثون عن قوة أعدائهم ، ... وإذا به يمسك بالمنظار المكبر ، ويضعه على عينه المفقودة البصر ، وينظر بها إلى الأمام ، ويقول : إنى لا أرى أمامى أعداء !! ... وهو يقصد السخرية والاستهانة بمن يحسبونهم قوة معادية وهو يراهم لا شئ أمامه ، ... فالإنسان فى نظره لا يحسب قوة معادية وهو يراهم لا شئ أمامه ، ... فالإنسان فى نظره لا يحسب بمجرد العدد ، بل بالعدة والقوة ،..

ويبدو أن إيليا كان يقصد شيئاً من هذا القبيل ، وليس بالضرورة مع الأعداء ، بل ربما مع الأصدقاء أيضاً ، ... فمع أن عوبديا حدثه عن نفسه ، وكيف أمكنه أن يخبئ مائة من الأنبياء فى مغارتين ، إلا أن إيليا عندما تحدث مع الرب بعد ذلك ، لم يحسب حساباً لهؤلاء الأنبياء ، ناهيك عما علمه بعد ذلك بأن هناك سبعة آلاف ركبة لم تجث لبعل ، وكل فم لم يقبله ، إذ أن إيليا لم ير أحداً يواجه الوثنية والفساد غيره : " بقيت وحدى " ... وفى عرف أليشع كانت هذه الحقيقة واضحة وهو يصرخ عند صعود إيليا إلى السماء ، ... إذ لم ير فردا صاعداً أمام عينيه ، بل رأى جيشاً بأكمله فى صورة فرد. مركبة إسرائيل وفرسانها " ... وهو يذكرنا بما قاله أحد القواد لجنوده ، عندما جاءوا يتحدثون إليه عن الكثرة الهائلة المتفوقة لجنود الأعداء على عددهم !! .. وكان سؤاله للجنود !! .. وبكم تحسبوننى أنا !! ؟

كانت مارى الدموية تفزع من جون نوكس ، وتفضل أن تلاقى جيشاً من عشرة آلاف رجل ، على مقابلة الرجل الذى كتب على قبره ... هنا يرقد الرجل الذى لم يهب فى حياته قط وجه إنسان.. !!

كان إيليا جيشاً عرمرما فى وجه آخاب وإيزابل ، ومن هنا سنقرأ قصته ونعرف من هو ، وما هى رسالته ، وكيف يمكن أن تتكرر فى كل أبطال الله على كر العصور والأجيال !! ؟

إيليا ومن هو

كان إيليا من الشخصيات العظيمة التى كثرت حولها الآراء والتقاليد ، إلى درجة أن الأساطير فى التلمود صورته بصورة فينحاس بن هرون ، وقد عاد إلى الحياة مرة أخرى لينتقم لمجد الرب الذى حاولت إيزابل وآخاب أن يضيعاه من إسرائيل !! .. أو هو الملاك أو رسول الرب الذى صعد إلى السماء ، بعد أن قدم جدعون تقدمته أمامه ، فمسها بالعكاز وصعد فى لهيبها إلى السماء ، ... وهو الرجل الذى قلده الكثيرون من اليهود زعامة الأنبياء ، والذى رن

اسمه طيلة تسعة قرون فى صدور الإسرائيلين ، والذى كانوا يضعون له كرسياً شاغراً عند ختان كل صبى فى إسرائيل ، وعند الفصح، آملين أن يظهر بغتة فى مثل هذه المناسبات ، .... والكلمة " إيليا " تعنى " إلهى يهوه " أو : " إلهى إله العهد " - أما " تشبه " التى ولد فيها فلا يعرف موقعها على وجه التحديد ، فالبعض يقول إنها بلدة فى الجليل تقع فى سبط نفتالى ، ولذا يعتقدون أن إيليا كان من هذا السبط ، وأنه هو أو ربما أبويه ، قد هرب إلى جلعاد من وجه الاضطهاد والوثنية أيام عمرى أبى آخاب ، واستوطن هناك ، ولذا دعى من مستوطنى جلعاد ، بينما يعتقد آخرون أن تشبه هذه بلد فى جلعاد الواقعة شرقى الأردن تجاه السامرة ، وأن إيليا ولد فيها ، ووجد من رده إلى الأصل القينى كيوناداب بن ركاب فى أيام ياهو !! . ومهما يختلف الناس فى أصله أو نسبه ، فإنه من الواضح أنه كان رجلاً جبلياً إذا صح التعبير ، يألف حياة الجبال . وقد جاء المعمدان بعده ، ليعيش فى البرية إلى يوم ظهوره لإسرائيل ، وهذا النوع من الناس يتسم فى العادة بالخشونة والصلابة والشجاعة وقوة الاحتمال ، ... ومنهم الجاديون الذين فى أيام داود ، وصفوا بالقول : " جبابرة البأس رجال جيش للحرب صافوا أتراس ورماح وجوههم كوجوه الأسود وهم كالظبى على الجبال فى السرعة . هؤلاء هم الذين عبروا الأردن فى الشهر الأول وهو ممتلئ إلى جميع شطوطه وهزموا كل أهل الأودية شرقاً وغرباً " .. " 1 أي 12 : 8 - 15 " والكتاب يصف إيليا : " أشعر متنطق بمنطقة من جلد على حقويه " . " 2 مل 1 : 8 ". والتقليد يقول : " إنه كان قصير القامة نذيراً ، أسود الشعر يتدلى شعره على كتفيه فى شبه عرف الأسد " ... ومع أننا لا نعرف كم استمرت فترة نبوته لإسرائيل ، غير أن البعض يرجح أنها كانت عشرين عاماً ، وأنه دعى للنبوة ومواجهة آخاب فى السنة الخامسة من كلمة ، أو حوالى عام 920 ق. م. وأنه التقى بآخاب بعد مصرع نابوت عام 906 ق.م ،وأنه صعد إلى السماء عام 900 ق. م ..

إيليا وظهوره

ظهر إيليا فجأة كالشهاب اللامع فى الليل البهيم ... وأغلب الظن أنه كالمعمدان ، عاش السنوات السابقة لظهوره فى البرية ، وبين الجبال ، يتأمل ماضى أمته العظيم ، وكيف تحول كل شئ خراباً إثر مجئ إيزابل زوجة لأخاب الملك ، وكانت إيزابل بنت اثبعل ملك الصيدونين ، وكان أبوها كاهنا للبعل - كما يقول يوسيفوس - وقدوضعت خطتها من اللحظة الأولى لمجيئها إلى إسرائيل أن تبيد اسم الله من كل مكان ، وأن تحل محله اسم البعل وعبادته، وهوت ابنة الشيطان على كل مقدس فى إسرائيل ، هدمت مذابح الله ، وقتلت الأنبياء ، وأجبرت الناس على الانحناء للبعل وعشتاروث ، وأحلت محل أنبياء الله أربعمائه وخمسين من أنبياء البعل ، وأربعمائه من أنبياء السوارى ، وكان البعل أبا الآلهة عند الفنيقيين ومصدر القوة والسيطرة والبهجة ، والسوارى أو عشتاروث آلهة الخصب والشباب والجمال ، ولم يستطيع إيليا وهو ينظر مأساة أمته ، إلا أن يتحول ينبوعا من الحزن العميق والغضب الهائل ، والمقاومة الجبارة ، ... وهل يمكن أن يكون غير ذلك ، وهو الإنسان الذى كانت عبارته المفضلة:"حى هو رب الجنود الذى أنا واقف أمامه " " 1 مل 18 : 15 ".. وهل يستطيع واحد منا وقد وقف أمام الرب الحى ، ليرى بيتاً من بيوت الله ، وقد كان عامراً بالأمس، مجيداً ينادى بمجد الله ، وقد تحول اليوم خراباً تنعق فيه البوم والغربان ، بسبب الخطية والشر ؟ ،

وهل يمكن أن يمر بهذا البيت دون أن يقول : " ياليت رأسى ماء وعينى ينبوع دموع فأبكى نهاراً وليلا قتلى بنت شعبى " " إر 9 : 1 ". أليس هذا هو إحساس نحميا أمام أرتحشستا الملك : " فقال لى الملك لماذا وجهك مكمد وأنت غير مريض ؟ ما هذا إلا كآبة قلب ... وقلت للملك ليحيى الملك إلى الأبد . كيف لا يكمد وجهى والمدينة بيت مقابر آبائى خراب وأبوابها قد أكلتها النار " " نح 2: 2 و 3 " وإلى جوار هذا الحزن امتلأ الرجل بالغضب الهائل ، إذ أنه عاش طوال سنى خدمته يتقد غيره ، وانطوت نفسه على ثورة لا تهدأ ولا تستريح ، ... وإن الغيرة المتقدة الآكلة، حولت قلبه إلى كتلة من لهيب ، وثورة هائلة ، لا تستطيع مياه الأرض كلها أن تطفىء سعيرها ، ولظاها ، .. هل لك اللهيب المقدس أيها المؤمن - وعلى وجه الخصوص - وأنت تعلم ، أنه ليس شئ عند الله أقسى وأوجع من الحياة الفاترة إلى الدرجة التى تثير الغثيان : " ليتك كنت بارداً أو حاراً ، هكذا لأنك فاتر ولست بارداً ولا حاراً أنا مزمع أن اتقيأك من فمى " " رؤ 3 : 15 و 16 " وقد تحول الحزن والغضب إلى مقاومة جبارة ، ... لقد كانت رسالته ، فى لحمتها وسداها ، مقاومة الشر والفساد والطغيان والعبادة الكاذبة ، ... وهل يستطيع أن يقف أمام الرب ، ثم يواجه البعل ، وتهدأ نفسه وتستريح ، .. كانت روسيا القيصرية تبذل كل جهدها فى مقاومة المرسليات فى القرن الماضى فى أنحاء الامبراطورية التركية ، ... وقد حدث لقاء بين واحد من سفراء القيصر ، وأحد رجال الله ، ... وقال السفير للمرسل : ينبغى ان أقول لك بكل صراحة أن سيدى القيصر لن يسمح للمرسليات البروتستانتية بأن تضع قدمها فى الإمبراطورية التركية ، وقال المرسل رداً على ذلك : " ياصاحب الفخامة : إن سيدى الرب يسوع المسيح لن يسأل قيصر الروس أين يضع قدميه " ... إن روسيا التى ضربها العفن والفساد هوى قياصرتها ، ومجدهم ، وبقى اسم المسيح ، وسيبقى إلى الأبد ، وقد أصدر السلطان عبد المجيد خان الفرمان الهمايونى فى شهر ديسمبر عام 1850 ، والذى أخذ به المذهب الإنجيلى فى مصر مركزه القانونى وقد نص فيه : " عند وصول أمرى العالى الشاهانى إليك ليكن معلوماً لديك أن طائفة النصارى من رعايا دولتى الذين تبعوا مذهب البروتستانت وسلكوا فيه حيث أنهم لغاية الآن ليسوا تحت نظارة مستقلة وأن بطارقة ورؤساء مذاهبهم القديمة التى تركوها بالطبع لم يعد لهم أن ينظروا فى أشغالهم ولذلك حاصل لهم الآن بعض المضايقة والعسر ، وقد اقتضت أفكارنا الخيرية ومرحمتنا السامية الملوكية المشهورة فى حق كافة رعايانا من سائر الطوائف بأن لا ترضى عدالتنا الشاهانية بحصول التعب والاضطراب لأى طائفة منهم . وحيث أن المذكورين هم عبارة من جماعة متفرقة من سائر المذاهب ، وبقى لإصلاح أمورهم والحصول على استتباب راحتهم ، تعيين وكيل لهم من طائفة البروتستانت ... وتباشرون جميع مصالحهم مثل سائر الطوائف من رعايانا ، ولذلك تسهلون لهم جميع ما يلزم لمحال عبادتهم ولا ترخصوا لأحد من الطوائف الأخرى أن يتداخل فى مصالحهم وأشغالهم الأهلية والدينية ، ولا يعارضهم أحد فى شئ من ذلك ... إلخ " ..

وقد شاء الله أن تأتى مقاومة إيليا للبعل وعشتاروث عن طريق المجاعة التى لابد أن تحل بالشعب بمنع المطر من السماء ، ... وكانت المجاعة أنسب أسلوب ليعرف الشعب من هو الإله الحقيقى ، ومن هى الآلهة الباطلة ، .. فإذا كان البعل وعشتاروث يشيران إلى الخصوبة والإثمار ، ويعتبران السر وراء كل طعام وماء ، فإن أفضل الطرق لإثبات كذب هذا الادعاء هو افلاسهما ، وعجزهما عن أى مساعدة من هذا القبيل ، ... وفى الوقت عينه إعلان الله عن

سخطه وغضبة ولعنته على التحول عنه وراء آلهة غريبة كما ذكر موسى فى سفر التثنية : " وتكون سماؤك التى فوق رأسك نحاساً والأرض التى تحتك حديداً ، ويجعل الرب مطر أرضك غباراً وتراباً ينزل عليك من السماء حتى تهلك " " تث 28 : 23 و 24 " وكان لابد أن تطول المجاعة ، حتى يحس بها الملك وإيزابل إحساساً عميقاً ، وأكثر من ذلك يحس بها الشعب ، حتى يدرك مدى الغضب الإلهى ، وضرورة العودة والرجوع إلى شخص الله !! ..

إيليا والعناية الإلهية

وكان لابد لعناية الله أن تظهر وتعمل عملها مع إيليا فى قلب المجاعة ، وكان على إيليا نفسه أن يأخذ بعض الدروس من المجاعة ولعل أول هذه الدروس هو أن المصلح لابد أن يشارك الشعب الذي يحاول إصلاحه متاعبه وضيقاته وآلامه ، كان لابد لإيليا نفسه أن يجوع ، ويعيش حياة الشظف مع الآخرين ، وقد حق لأحدهم أن يتصوره يخرج ذات يوم ليشرب من نهر كريت : " وكان بعد مدة من الزمان أن النهر يبس لأنه لم يكن مطر فى الأرض " ... " 1 مل 17 : 7 " .. وظل ذلك اليوم ظامئا ، وسار فى طريقه إلى أرملة صرفة صيدا ، ومن حديثه مع المرأة وطلبه منها أن تعمل له أولا كعكة صغيرة ، نحس مدى الجوع الذى وصل إليه ، ... ومع أن المجاعة لم تكن بسبب خطية ارتكبها هو ، أو أن الله قد تخلى عنه فى إحسانه وجوده ، لكنه مع ذلك كان لابد أن يكون شريكاً فى آلام قومه وشعبه ، وهى ضريبة المصلح فى كل العصور والأجيال ، ... والدرس الثانى الذى كان لابد أن يتلقنه ، هو الفرق بين الشجاعة والتهور ، فقد كان عليه أن يختبئ عند نهر كريت ، وقد تكون عناية الله مرات كثيرة بتخبئة المعتنى به من وجه الشر ، وقد خبأ الله إرميا من وجه الأعداء ، ورأى بولس عناية السيد ، عندما أنزل فى زمبيل من سور دمشق ، ... وهى العناية التى تملك الوسائل الطبيعية والمعجزية ، الظاهرة والخفية ، الكبيرة والصغيرة ومن الواجب أن نراها ونقبلها بالشكر ولا يجوز قط أن تبعدنا هذه العناية عن الحكمة والواجب إلتماسها ، بدعوى أنه مادام الله معنا ، فلا يجوز أن نلجأ إلى هذا التحفظ أو غيره من الأساليب أو الصور ، ..

على أنه يلزم أن نعلم ، على أية حال ، أن عناية الله فى المجاعات تستطيع أن تشق الطريق ، مهما كانت العوائق والحواجز ، ونحن نرى العناية هنا تسلك سبيلا عجيباً ، سواء فى الانتصار على الغرائز أو فى قلب الأوضاع رأساً على عقب ، ... وقد مد الله عنايته لإيليا أولا عن طريق الغربان التى كانت تأتيه بالخبز واللحم مرتين كل يوم صباحاً ومساء ، ... وهذه الطريقة المثيرة جعلت البعض يتصورون أن كلمة الغربان " يمكن أن تترجم " العربان أو رجال البادية الذين كانوا يمدون إيليا مرتين ، وقالوا إن الأصل العربى كالعبرى يصح معه مثل هذه الترجمة ، وهذا تفسير واه ضعيف ، وليس أقل ضعفاً منه ذلك التفسير بأن الكلمات رمزية تشير إلى أنه كان يأكل بوفرة فى المجاعة ، ... ولعل الصعوبة عندهم هى أن غريزة الغراب الأولى هى الخطف وأنه يأخذ ولا يعطى ، ... وهذا فى عقيدتى ، هو السر فى استخدام الله له ، ليثبت جلاله ومجده فى السيطرة على الغرائز ، فهو يعطيك من حيث لا تدرى وهو يفنيك بتغيير مجرى الغرائز فى العجماوات أو البشر على حد سواء ، وأنه يمكن أن يجعل القاسى ودوداً ، والشحيح سخياً ، والشره باذلا ، والآخذ معطياً ، ويده لا تقصر عن استخدام الجماد

والحيوان والإنسان فى إتمام قصده ومشيئته ، ... فإذا تلقن إيليا هذا الدرس ، فإنه يعطيه درساً آخر ، ليؤكده من وجه ثان ، إذ ينقله من إسرائيل إلى صرفه صيدا ، الواقعة فى أرض أثبعل أبى ايزابل ، الأرض التى لا يمكن أن يخطر ببال إنسان أن إيليا يلجأ إليها ، ويأتيه المدد من امرأة أرملة أممية معدمة ، تقف على الخط الفاصل بين الحياة والموت ، لتقش عيداناً ، لتعمل لقمة تتبلغ بها مع ابنها ، ثم يموتان ... وهكذا تأتى العناية عن طريق الجائع المسغب الذى يهلك جوعاً ، وليس هناك من قلب للاوضاع فى الدنيا مثل هذا القلب ، فالرجل تعوله امرأة ، والمرأة ليست إلا أرملة ، والأرملة ليست إلا الفقيرة المعدمة التى لا تملك قوت الحياة !! .. ذهبت المرأة لتسعف إيليا بجرعة ماء ، وتعتذر عن تقديم كسرة خبز له ، وتكشف عن آخر مكانها مع اللقمة الباقية ، ولكن إيليا رجل الله مع ذلك يطلب ، ويطلب كعكة صغيرة أولا ، ... يريد أن يعلمها أن حق الله يسبق كل حق ، ... وأنك يوم تعطى الله ، ولو شيئاً صغيراً مما تملك ، فإنك ستعثر على سر ينبوع البركة وستعرف سيلا من الزيت لا يمكن أن ينتهى حتى تنتهى المجاعة من الأرض !! .. عندما نقف أمام عناية الله ، ينبغى أن نلغى من الذهن البشرى كل مفهوم للحساب الأرضى ، وقواعده ، وأصوله ، وذلك لأن هذا الحساب يستطيع أن يعطى صورة جيدة للمنظور ، ولكنه يعجز تماماً عن أن يدخل إلى بحر غير المنظور ، ويقيم هناك حسابهن ، ... ولعل الله أراد أن يعطى إيليا درساً ثالثاً أبعد وأعمق من الدرسين السابقين ، ... فإذا بابن الأرملة يموت ، وإذا بالمرأة تعجز عن أن تفسر موته ، إلا أنه عقاب على خطايا سابقة ربما عملتها فى أيام الصبا ، ... سقط السلاح من يد المرأة ، وذهب الولد الذى كان رجاءها وتعزيتها فى الأرض ، ... ورفض إيليا هذا المنطق ، فهو لا يعتقد أن الله يمكن أن يجازى المرأة هذا الجزاء ، ... وهو يصرخ إلى الرب بلغة من أغرب اللغات وأجرأها ، تلك التى يتعود أبناء الله الاتجاه فيها إلى سيدهم فى لحظات الضيق والشدة والألم : " أيها الرب إلهى أ أيضاً إلى الأرملة التى أنا نازل عندها قد أسأت بإماتتك إبنها .. يارب إلهى لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه " " 1مل 17 : 20 ت 21 " .

هل تستطيع أيها المؤمن أن ترفع كل تحفظ بينك وبين الله ؟ ، وهل تستطيع – كابن الله – أن تعبر بأعمق تعبيرات النبوة ، إلى الدرجة التى تقول فيها مع موسى : " فرجع موسى إلى الرب وقال يا سيدى لماذا أسأت إلى هذا الشعب ؟ لماذا أرسلتنى ؟ " " خر 5 : 22 "... ومع إيليا : " قد أسأت بإماتتك ابنها " .. !! ؟ ... ألا يقبل الله التعبير المخلص ، حتى ولو بدا خشناً قاسياً ! ... بلى ! إنه عنده أفضل من التعبير المهذب المرائى ، الذى لا يتحدث بعمق الحب المتألم المخلص العميق !! ؟ .. إن الله يفضل أن نأتى إليه بالإخلاص ، مهما بدا هذا الإخلاص ضعيفاً أو خالياً من العبارة المصنوعة أو التعبير المتكلف ، ... إنه يريد أن تعانق روح المؤمن مع روحه فى الحب والألم والشركة المخلصة ، مهما كانت الظروف التى نعيش فيها !! .. وسمع الله لإيليا وأرجع الولد ، ... الذى يقول تقليد - لا يعلم إن كان صحيحاً أو غير صحيح - إن الغلام كبر ليكون يونان النبى الذى أرسله الله إلى نينوى الأممية ... على أنه على أية حال ، كان هذا النوع من العناية مقوياً ومشدداً للأرملة وللغلام ولإيليا ، ... وكان درساً خالداً فى كل الأجيال لكل الذين يتطلعون فى أرض الآلام والمتاعب والمجاعات ، إلى ينابيع العناية الإلهية التى لا تنضب . أو تنفد أو تفيض !!

إيليا والمعركة على جبل الكرمل

ولعله من المناسب أن نذكر هنا ان إيليا لم يذهب إلى آخاب ، بل إن آخاب ذهب للقاء إيليا ، ... وهذا هو الفارق العظيم بين الرجلين ، أن إيليا يعلم أنه أعظم من آخاب ، بذات الصورة التى رأى فيها بولس نفسه وهو يقول للملك أغريباس : " كنت أصلى إلى الله أنه بقليل وبكثير ليس أنت فقط ، بل أيضاً جميع الذى يسمعوننى اليوم يصيرون هكذا كما أنا ما خلا هذه القيود " " أع 26 : 29 " إن قيمة الإنسان الحقيقية لا تظهر فيما يملك من متاع أو ما يلبس من ثياب فاخرة ، أو ما يحيط به من الخدم أو الحشم ، أو مظاهر العظمة أو القوة ، إن قيمته الحقيقية تكمن فى شخصيته ونفسه ، .

كان إيليا أشعر ، يتمنطق بمنطقة من جلد ، وعندما ركض أمام آخاب ، سار ما يقرب من ستة عشر ميلا على قدميه ، ... لم يكن له مركبة آخاب أو ثيابه أو بهاؤه أو مظهره ، ولكنها هذه جميعها ، ليست إلا الغلاف الذى يغطى الحمقى والأشرار فى الأرض !! .. أما جوهر الإنسان ففى قلبه المرتبط بالله ، وهو الذى يمكن أن يعطيه أعظم قيمة فى هذا الوجود !! .. وفى اللقاء بين الملك وإيليا كان آخاب الإنسان الأحمق الذى غطت الخطية الحقيقة عن عينيه وقلبه ، ... فهو يرى الذنب كل الذنب فى إيليا : " ولما رأى آخاب قال له آخاب : أ أنت هو مكدر إسرائيل ؟ " " 1مل 18 : 17 " .. وهو لا يستطيع أن يرى خطية واحدة فى نفسه ، أو فى الشعب الذى ترك الله ، .. أو عبادة البعل وعشتاروث التى كانت سر النكبة والكارثة والمجاعة !!! .. وهى الصورة الدائمة للبشر ، فهم يدفعون عن أنفسهم النتيجة : التى لابد أن تكون لخطاياهم ، ... وهى فى نظرهم الظروف السيئة أو أخطاء الآخرين أو القسوة التى لا مبرر لها من الله !! ... ولم يخف إيليا من أن يضع الصورة الصحيحة للمأساة كلها إذ قال : " لم أكدر إسرائيل، بل أنت وبيت أبيك ، بترككم وصايا الرب وبسيرك وراء البعليم " " 1 مل 18 : 18 " ... وقاد إيليا الجميع إلى المعركة الفاصلة على جبل الكرمل .. وكان لابد من أن تدرك الأمة - عن بكرة أبيها - من هو الإله الحى الحقيقى وحده ، ومن هى الالهة الزائفة الباطلة الكاذبة !! ؟ والبينة على من ادعى !! ؟ .. فإذا زعم إنسان أنه فيلسوف أو شاعر ، فالبرهان يظهر فى فلسفته أو شعره ، ... وإذا قال أنه رجل فإن أعمال الرجال تظهره ، وإذا ادعى أنه نبى مرسل من الله ، فإن أقوال النبى أو أعماله هى التى تشهد له !! .. وقد وقف إيليا وحده فى مواجهة ثمانمائة وخمسين نبياً للبعل وعشتاروث ، ولم تكن الكثرة دليلا على الحق أو الصواب الذى يزعمون أنه فى جانبهم، ... وأعطاهم إيليا الفرصة الكاملة أولا دون أن يستطيع صراخهم أو جراحهم التى سالت من أجسادهم بسيوفهم ، والتى ظنوا أنهم يرضون الآلهة بها ، .. لم تستطع أن تعينهم فى شئ وسخر إيليا منهم سخرية الواثق بإلهه ، وكانت سخريته لاذعة ، فى قوله ك " ادعوا بصوت عال لأنه إله . لعله مستغرق أو فى خلوة أو فى سفر أو لعله نائم فيتنبه " .." 1 مل 18 : 27 " .. ومن الغريب أن هذا التحدى لم ينته بعصر إيليا ، فإن البعل يذهب ويجئ فى العصور كلها ، حيث يستبدل الله بآلهة غريبة ، أو كما قال أحدهم : " إن البعل العصرى هو ما يعبده الناس من ثروة أو شهوة أو جاه ، أو مجد عالمى أو راحة مادية ، ... وهم يضعونها فى مواجهة البر والأمانة والحق وكل ثمار الروح القدس فى الإنسان الباطن " !! ..

وإذ عجز الأدعياء عن أن يثبتوا ادعاءهم ، تقدم هو ورمم بالاشتراك مع الشعب مذبح الرب المنهدم ، وقدم الذبيحة بما لا يدع مجالا للشك أو التساؤل أو الخداع ، إذ أنه لم يرتب الحطب والذبيحة فقط ، بل صب ماء كثيراً حتى لا يقال إن النار المشتعلة حدثت عن طريق خداع بشرى ، وأبصر الشعب جميعاً النار التى أتت من السماء لتلتهم كل شئ . على أنه من الملاحظ أن النار لم تنزل إلا بعد صلاة النبى ، وهكذا فى كل حين يشجع الله أبناءه ليحسوا بكيفية اختبارية بينه وبين العالم ، وهو مستعد أن يظهر ذاته لهم وللعالم أجمع ، بصورة لا تحتمل اللبس أو الإبهام !! .. ألم يقل عرافو فرعون أمام ضربة البعوض : " هذا إصبع الله " "خر 8 : 19 " ... وإذ رأى الشعب المعجزة بلغ بهم الانفعال ذروته وسجدوا على وجوههم أمام الله ، واشتركوا مع إيليا فى ذبح أنبياء البعل على نهر قيشون !! .. ومع أن هذا الانفعال كان قصيراً ووقتياً ، إلا أنه - على أية حال - عرف الجميع من هو الإله الحق ، ومن هى الآلهة الباطلة !! ..

إيليا وآخاب عند كرم نابوت اليزرعيلى

بعد أربع سنوات أو خمس من القضاء على أنبياء البعل ، عاد إيليا ليلتقى بآخاب عند كرم نابوت اليزرعيلى ، وكانت يزرعيل إلى الشمال من السامرة بما يقرب من العشرين ميلا ، وعاد الشر إلى جولة أخرى مع الخير ، وآخاب يزداد سوءاً ومصيره يزداد بشاعة ، وذهب آخاب إلى الكرم ليرثه ، والتقى به إيليا هناك ، ليقول له : " هل قتلت وورثت أيضاً ؟ " " 1مل 21 : 19 " . ويا له من ميراث رهيب ! " ... والحقيقة المحزنة هى أن الميراث الرهيب من الجائز أن يصل إليه الإنسان فى أرض الفساد والظلم ، رغم كافة الحواجز التى يمكن تجاوزها أو تجاهلها أو تخطيها بكل قوة وعنف..

طلب آخاب كرم نابوت لكى يحوله إلى بستان بقول ، وقال له إنى مستعد أن أعطيك ثمنه أو كرماً أحسن منه ، وكان يمكن لنابوت أن يرضى لولا أن الشريعة تمنع ذلك إذ لا يجوز لإنسان أن يتصرف فى ميراث آبائه ، وأغلب الظن أنه قال للملك : " كان بودى أن أفعل ذلك ، ولكن أمر الله يمنعنى من التصرف فى أرض الميراث " ، وذهب آخاب إلى بيته مغموماً " وامتنع عن الطعام ، ونام محزوناً كئيباً ، وإذا بإيزابل تأتى إليه وتستفسر عن سر حزنه ، ثم تسخر منه لأنه وهو ملك لا يستطيع أن يزيل عقبة كهذه ، وأمكن للملكة عن طريق الشر أن تحصل على الكرم ، هذا هو الفصل الأول من القصة ، ... وهو فصل يتكرر كثيراً فى الحياة . . قال السيد : " لأنه واسع الباب ورحب الطريق الذى يؤدى إلى الهلاك . وكثيرون هم الذين يدخلون منه " مت 7 : 13 ".. إن طريق الشر واسع ميسور فيمكن أن تحصل علي ما تريد ، ولا يحتاج الأمر إلا إلى كذبة أو غش أو خداع أو تدليس ، أو شئ يعمل فى الظلام . وقد ينجح الشر فى الجولة الأولى من المعركة ، ولكنه هيهات أن يكسب المعركة الأخيرة .. يقول المرنم : " لا تغر من الأشرار ولا تحسد عمال الإثم ، فإنهم مثل الحشيش سريعاً يقطعون ، ومثل العشب الأخضر يذبلون !! .. "مز 37 : 1 و 2 " ومع أن الميراث الرهيب أمر ممكن وجائز فى الأرض ، إلا أنه تلحق به حقيقة أخرى ، أنه دائماً مخجل ، .... واعتقد أن آخاب أحس الكثير من الخجل وهو فى طريقه إلى الكرم لرؤياه .. لقد اكتشف فيه نفسه ، واكتشف فى هذه النفس

أشياء كثيرة تنكس الرأس . لقد اكتشف طمعه ، وكذبه ، وظلمه ، .. كان آخاب ملكاً يملك أعظم القصور والبساتين ، وكانت لديه بساتين وكروم متعددة ، ولكن هذه لا تساوى شيئاً طالما هو غير مستطيع أن يحصل على كرم نابوت !! يا للنفس البشرية التى لا تشبع ، والتى تتريد أن تأخذ لنفسها كل شئ!! . إننا نقيس أمورنا لا على حساب حاجاتنا ، بل على حساب جيراننا ، إذ لا أريد أن يظهر مجد إلى جانب مجدى ، أو سلطان إلى جانب سلطانى ، أو نفوذ إلى جانب نفوذى ، وكل بساتين الدنيا أو كرومها لا تساوى البستان الصغير الذي يملكه جارى،... يا له من طمع مخجل ! .. بل يا له من ميراث قبيح ! ذاك الذي لا أستطيع الحصول عليه إلا بالكذب والخداع والغش .. نادوا بصوم ، والمناداة بالصوم لا تحدث إلا إذا حدث أمر رهيب ، والأمر الرهيب أن نابوت جدف على الله والملك ، فياله من مجرم ، ويا لها من خطية شنيعة ، وها اثنان يشهدان أمام الشيوخ ، وها المحاكمة كلها تتم فى جو من الكذب ، وآخاب يعلم ويطأطئ رأسه خجلا ، بل هو يعلم أنه حصل على هذا الميراث بغير حق أو عدل ، بل حصل عليه بظلم صارخ ، .. ما أكثر الذين يأخذون من الناس مواريث متعددة ، ولكنهم يدفعون فى سبيلها أثمان باهظة ، إذ يدفعون المبادئ الروحية والأدبية : يدفعون الحق والشرف والكرامة والنبل والإباء والعدالة !! ، وهل تستحق كروم الدنيا كلها - لا كرم نابوت فحسب - هل تستحق أن يدفع فيها مثل هذا الثمن ؟!! ... فإذا أضفنا إلى هذا كله ، أن الميراث كان ميراثاً مقلقاً !! .. ذهب آخاب ليستمتع بالكرم الذي ورثه ، ولعل الكرم كان جميلاً ظليلا ، وكانت عناقيده حلوة ولذيذة ، وكان موقعه بديعاً ، وآخاب يستطيع أن يملأ نظره منه ، ويفيء إليه سعة الحر والهجير ، بل يستطيع أن يأكل منه ما يشاء دون أن يمنعه أحد ، فهل استراح الملك وأكل ؟ ، لقد أضحت الظلال ظلاماً ، والعناقيد علقماً ، والكرم سجناً رهيباً ، إذ سمع صوت الله العادل هناك : !! هل قتلت وورثت أيضاً " !! لقد ظهر نبى الله فى لحظة السرور والبهجة والتمتع ، .. يقولون إنه قبل أن يذهب إلى الكرم ثار عليه ضميره ، وحاول إسكاته بالقول : لم أصنع شيئاً !! ؟ فأنا لم أحاول اغتصاب الكرم .. لقد عرضت عليه ثمناً سخياً فأبى !! .. لقد عرضت عليه كرماً آخر أحسن منه مقابله فرفض .. ولم أفعل أنا شيئاً ضده ، فلم أتدخل فى الأمر ، بل تدخل غيرى ، كما أنه يستحق الموت لأنه عصى أمر مليكه ، ولكن صوت الله جاءه لينسب إليه القتل كيفما كان ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة !! .. فالرضا على الظلم ، هو بعينه الظلم ، والقتل بأمر آخاب أو بأمر إيزابل أو بأمر الشيوخ ، هو الدم الذي يتحمله آخاب أولا وأخيراً !! ..

لم يتمتع الرجل بالكرم كما كان يشتهى ، لأنه فى قلب الكرم سمع عن مصيره المفجع ، ومصير بيته ، ولولا أنه اتضع ومزق ثيابه وصام ، لجلب الله عليه العقاب سريعاً ، ولكن بقية من رحمة الله آتية فلم يحدث كل الشر فى حياته ، ولو أنه تاب مع إيزابل لنجيا ، ولكنها لم تتب ، فدمرت بيتها بيديها وأضحت قصتها مثلا تذكره الأجيال بالخوف والفزع والرهبة !! .. قيل إن أحد ملوك انجلترا أراد مرة أن يستولى على حديقة كنيسته ليكمل بها قصره ، فسأل رئيس الوزراء : كم تكلف هذه الحديقة .. فأجابه: إنها تكلف ثلاثة تيجان .. تاج انجلترا ، وإيرلندا ، واسكتلندا ، أى أن محاولة أخذها ستقلب العرش ، وكان هذا كافياً لإقلاع الملك عن فكرته !! .. أجل " مخيف هو الوقوع فى يدى الله الحى !! .. " عب 10 : 31.. "

من المعتقد أن خدمة إيليا استمرت حوالى عشرين عاماً ، كانت الخمسة عشر أو الستة عشر عاماً الأولى منها عاصفة ، ممتلئة بالثورة والصراع ، وهو أشبه بالخادم الميثودستى ، الذي اشتكوا من صوته الصارخ فى المنبر ، وإذ به يجيبهم : " أنا لا أغنى لتنويم الأطفال ، بل أنا أحطم الصخور " . وكانت رسالة إيليا تحطيم صخور الوثنية والشر التى ملأت كل مكان . .. ومع أننا نعلم أنه أصيب بصدمة قاسية غداة قتل أنبياء البعل ، وهى رد الفعل للنجاح العظيم فوق جبل الكرمل ، إذ أن إيزابل هددته بالقتل ، .. ولم يجد من الشعب الذي آزره فى ذبح الأنبياء الكذبة ، ما يشجعه على مواجهة الشريرة الطاغية ، التى مازالت تمسك بزمام الأمور فى الأمة كلها ، كان إيليا تحت الرتمة شيئاً يختلف تماماً عن إيليا فوق جبل الكرمل ، وهى النفس البشرية المتلونة والتى لا تثبت على حال ، فهى تارة فى أعلى جبال الشركة مع الله ثم لا تلبث أن تهوى تارة أخرى إلى بالوعة اليأس ، .. ولكن شكراً لله ، الذي أرسل ملاكه إليه تحت الرتمة ، دون أن يناقشه فى شئ ، فقد كانت نفسه ممتلئة بالمرارة والأسى واليأس والقنوط ، والتوتر يملأ عواطفه ، والانفعال لا يعطيه أية فرصة للمناقشة الهادئة الساكنة ، وكان علاج الله لنفسه أن يطعمه ويريحه ، حتى يهدأ ويسكن ، قبل أن يتكلم إليه أو يحاجه أو يسأله . .. وهى الحكمة الإلهية التى ينبغى أن نتعلم منها ، كيف نعالج الثورات النفسية عند الآخرين " فالأفضل أن ننتظر ، حتى تستريح أجسادهم ونفوسهم ، قبل أى حديث أو مناقشة ، .. كان عمل الله الوحيد أن يطعم إيليا ويريحه ، وينتظر أربعين يوماً قبل إن ينقاشه على جبل الله حوريب قائلا : " مالك ههنا يا إيليا ؟ . "" 1مل 19 : 9 ".

ومن الغريب أنه فوق جبل الله حوريب فى سيناء أدرك إيليا الحقيقة التى غابت عنه طويلا ، إن الصوت المنخفض الخفيف ، وليس صوت الريح أو الزلزلة أو النار ، هو الأكثر تأثيراً وقوة وفاعلية ، إن الثلاثة الأصوات الأولى ليست فى حقيقتها ، سوى المهد للصوت الأقوى والأعمق والأبعد أثراً ، صوت الحب والحنان والرحمة والإحسان والجود والغفران ، أو فى لغة أخرى هو صوت الصليب ، الصوت الذى تحدث به موسى وإيليا مع المسيح فوق جبل التجلى : " وإذا رجلان يتكلمان معه وهما موسى وإيليا ، اللذان ظهرا بمجد وتكلما عن خروجه الذى كان عتيداً أن يكمله فى أورشليم " " لو 19 : 30 و 31 " لقد أهلك الله العالم بالطوفان أيام نوح ، وأباد الله سدوم وعمورة بالنيران ، وذبح إيليا أنبياء البعل ، ومع ذلك فالخطية لا تزال تفتك بالبشر ، وهى فى حاجة إلى أصوات أخرى أفعل من العواصف والزوابع والنيران والزلازل ، إنه صوت الله المنخفض فى الصليب ، ... وعاد إيليا إنساناً من حوريب يختلف ، إلى حد بعيد ، عما كان عليه أولا ، يمسح حزائيل ملكاً على آرام ، وياهو بن نمشى ملكاً على إسرائيل ، وأليشع بن شافاط نبياً عوضاً عنه ودخلت إلى حياته حلاوة أعمق وأجل ، ... وأضحى أشبه بشجرة عنب فى إنجلترا ربما هى أكبر شجرة من نوعها ، وهى قديمة ، وقد لاحظ أحدهم أن عنبها أصغر من المعتاد ، وسأل لماذا يبدو حجم الحبة من العنب أصغر وأجابة البستانى : إنه أصغر لأن الشجرة قديمة عجوز ، ولكن لا يوجد ما هو أحلى من هذا العنب على الاطلاق ، "
.

عاش إيليا سنواته الأخيرة أهدأ وأجمل وأقوى ، وأخذ يشرف على مدارس الأنبياء،... وجاء اليوم الذى وصفه جوزيف باركر كدرس من أعظم دروس العناية ، وهو : " لا متى يذهب إيليا

، بل متى يأخذه الله الذى يعلم متى تنتهى خدمتنا ورسالتنا " أو فى لغة أخرى : إن الله يعلم متى يأخذنا إلى حقل آخر أعظم وأجمل ، وإلى فرصة أوسع : " من عشرة أمناء إلى عشر مدن " ... وها نحن نرى الرحلة الأخيرة لإيليا فى الأرض ، التى تنتقل فيها من الجلجال إلى بيت إيل إلى أريحا ، أو قرابة ثلاثين ميلا " وأغلب الظن أنه كان يريد زيارة ثلاث مدارس للأنبياء هناك ، ويتزود بالنظرات الأخيرة للارض التى أحبها وخدم فيها ، قبل أن يصعد إلى السماء ، وقد لازمه ورافقه فى الرحلة أليشع ، وأبى أن يتخلى عنه البتة ، رغم أن إيليا ألح عليه أن يبقى حيث هو،... ونحن نسأل لماذا أراد إيليا أن يمكث أليشع فى المكان الذى كان فيه !! ؟ هل لأنه كان لا يريده أن يتخلى عن عمل كان يقوم به عند بدء الرحلة !! ... أم لأنه أراده أن يكون بين بنى الأنبياء فى واحدة من المدارس الثلاث !! ؟ ... أم لأنه كما هو الأرجح أراد أن يختبر معدنه وصلابته ، قبل أن يرحل عنه ، وفى الوقت عينه أن يختلى بالله الذى سيذهب إليه بعد قليل !! ... على أية حال لقد أصر أليشع على مرافقته، كما ينبغى للخادم الأمين أو الصديق الوفى ، أو الجندى الذى أوشك أن يحمل العلم ليؤدى الرسالة الموضوعة عليه ، ... وها نحن نراهما الآن يصلان إلى الأردن ، ويلف إيليا الرداء ويشق الأردن به ، ويعبر كلاهما ، ويسأل المعلم تلميذه ماذا يريد قبل أن يؤخذ منه !! ؟ ويصر التلميذ على أن يقف من المعلم موقف الابن البكر الذى يأخذ نصيب اثنين حسب الشريعة الإسرائيلية ، ولما لم يكن لايليا شئ من متاع الأرض ، ولما كانت الطلبة روحية ، قـال له إيليـــا : " صعبت السؤال " !! ... " 2 مل 2 : 10 " وذلك لأن الطلبات الروحية ، عطية من الله ، وليس هبة من إنسان !! ... وهى تؤخذ بالعين الروحية المفتوحة ، فإن رآه يؤخذ منه ، كان هذا دليلا على أن الله سيعطيه هذا النصيب ، نعود فنشير إلى أن أليشع لا يقصد أن يكون له ضعف ما كان إيليا ، بل أن يأخذ نصيب البكر من الأولاد ، ... وفتح الله عينى إليشع ، وسقط رداء إيليا عنه ، فأخذه وأخذ نصيب إثنين من روحه ، بعد أن مزق ثيابه ، " وهو يصرخ يا أبى يا أبى مركبة إسرائيل وفرسانها " ، " 2مل 2 : 12 " وهو كما أشرنا أولا لم يره فرداً واحداً ، بل جيشاً عرمرما ، والقائد المسيحى الغيور الشجاع سيبقى دائماً هكذا ، سواء فى الدفاع أو الهجوم لمجد الله ، ... ومع أن إبراهيم ، وداود ، وايليا ، وبولس ، وأثناسيوس ، ولوثر وويسلى ، وأمثالهم - لا يظهرون إلا نادراً فى موكب العصور ، لكننا نصلى لعل واحداً منهم يظهر فى أيامنا هذه فى عظمة الأبطال الخالدين ، ويمكن أن نقول قبل أن يؤخذ منا فى مركبة السماء : " يا أبى يا أبى مركبة إسرائيل وفرسانها"